

* قراءة في سيميائية أصوات العربية *

- صوتا الراء والحاء نموذجا-

أ.د/ عمار ساسي .
جامعة - سعد دحلب البليدة.

المقدمة:

إذا كانت العربية هي اللسان الذي أختاره الله تعالى للقرآن الكريم و كتابه الخالد وآيته الصادقة و معجزته البينة فنزل بها، فليس ذلك إلا لتوفرها على جملة خصائص، و تفردها بها عن غيرها من الألسن من أبرزها خصائص أصواتها المنطوية على معاني وأسرار جليلة. ومن أظهرها قدرة الأصوات في التشكل والإنسجام للدلالة على معاني الوجود والحياة بعالمها الشهادة والغيب، وفي كل ذلك لا تعجز و لا تقصر و لا تتلكأ في الإبانة عن أي معنى من المعاني بدقة فائقة و وضوح تام. قال تعالى >> ... لسان الذي يلحدون إليه أعجمي و هذا لسان عربي مبين << (1). و في الآية دلالات سيميائية عميقة مفادها أن اللسان العربي هو الوحيد الذي يقوى على الإبانة عن معاني الوجود، و هذا ما يقرر أن الوجود مرتسم في اللسان بحقيقة و أن اللسان راسم بحق لهذا الوجود بعالمه الشهادة و الغيب صوتا ومفردة وتركيبا، ويبقى جهد البحث وعامل الزمن هما الكاشفين .

و قد حصل هذا حقيقة في القرآن الكريم حين نزل باللسان العربي دون الألسن الأخرى. و لما كان أساس اللسان العربي أصواتا، فإنها تتبعه حتما في حملها هذه الأسرار. و نريد بالسر هنا الدلالات السيميائية المحكمة والمرتبطة بالكون والوجود. إننا نذكر هذا انطلاقا من الثابتة التالية: " هل اللسان إلا عالم منطوق لعالم منشهود " (2).

و مادامت الأصوات في العربية محدودة و المعاني في الوجود غير محدودة، فلا ريب أن تكون حاملة لدلالات كلية منطوية على أسرار لا يدركها إلا العارفون الموفقون للإطلاع على أسرار الوجود بإذن الله. وربما لحكمة ما عميقة قال الله تعالى: >> ... ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنهم في لحن القول و الله يعلم أعمالكم << (3).

لتكون السمة دليلا إلى معرفة الحقيقة، كما يكون الصوت سمة لمعرفة حقيقة الأشياء ومعنى هذا فليس من قبيل العقل إرسال عبارة الصوت لا معنى له و لا سمة.

و نرى أن تحل محلها الجملة الثابتة: أن للصوت معنى ودلالة و سمة في اللسان العربي. و ما يعزز هذه القراءة فواتح سور القرآن التي وردت بأصوات صرفة فردية وثنائية و ثلاثية و رباعية و خماسية. فهي لم ترد عارية من المعنى و الدلالة والسمة، كما أنها ليست في موضع زيادة، وأنها ليست كلمات ولا جملا على حد قول بعض المفسرين. إنما حقيقتها أصوات، ولا بد لهذه الأصوات من معنى و دلالة و سمة أكتشف أم لم يكشف. وللبحث في الموضوع صلة و العلم حركة متجددة ومجتهدة لا تعرف التوقف ولا القعود ولا الموت. هذا و إن موضوع السيمياء هو قائم في كل كائن من كائنات الوجود. و في ذلك قد وردت إشارات دالة في القرآن الكريم منها قوله: >> سيماهم في وجوههم من أثر السجود << (4)،

>> تعرفهم بسيماهم << (5) .

وبنظرة فاحصة فإن الوجود بموجوداته هو سمة تدل على وحدانية الخالق تعالى.

فقوله: >> أمن خلق السموات والأرض و أنزل لكم من السماء ماء، فأنبئنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم تنتبوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون << (6). ذلك أن التأمل في السموات والأرض والحدائق و الشجرة لا يحصل لذاته و ليس هو للترف أو الترفية، إنما هو لمعنى حاصل و لدلالة قائمة ولسمة هادفة هي الوصول إلى حقيقة وحدانية الله تعالى:

>> إليه مع الله <<. فلا معنى للوجود إذا لم يكن سمة على الواجد، و لا معنى للخلق إذا لم يكن سمة على الخالق، و هكذا.

في معاني السيميائية الصوتية:

لقد ذكروا أن مصطلح السيميائية جاء من مادة (س و م) التي تعني (العلامة) التي يعلم بها شيء ما أو حيوان ما. ومن هذه المادة جاء لفظ السيمياء (بالقصر)، والسيماء بالمد، والسيميائية بإضافة ياء قبل الألف، وبعد الميم. ومن اللفظ الأخير أخذ منظرو اللسانيات والسيميائيات العرب مصطلحهم المعروف بالسيميائية بإضافة ياء النزعة أو الياء الصناعية. وعليه فمن الناحية اللغوية الصرفة يمكن أن نقول (السيموية) ، كما نقول السيميائية، (السيموية)، وأصل هذا اللفظ إغريقي مركب التي هي من بلورة (بيرس) وهي تهني العلم الكلي للسيمات. وليس المقصود بها (semiotique) السيمات اللسانية فحسب، إذ لم تعدد إلا مجرد نقطة في فضاء رحب تهيمن عليه أمبراطورية السيمات ولم تتخذ السيميائية شكل المشروع العلمي حقيقة إلا بفضل (بيرس) و (دوسوسير) وتعد السيميائية اليوم مقعد علم للمعنى، وأنها منهجية العلوم التي تعالج الأنساق الدالة، أي العلوم الإنسانية حيث تعدّ الممارسات السوسيو تاريخية التي تشكل موضوع هذه العلوم ، الأسطورة ، الدين ، الأدب ، علانها تساق للسيمات. ولنا بعد هذا إنطلاقاً من خصائص اللسان العربي المميزة نقول إنه إذا كان لكل شيء في الوجود معنى ودلالة وسمة، فذاك يعني أنها مصطلحات متميزة ومتباينة المعاني فالمعنى هو ما يعرف باللفظ . والدلالة هي ما يدل على المعنى والسمة هي ما يعرف من اللفظ والدلالة. أن السمة تقوم على المعنى والدلالة وتتجاوزهما إلى معنى غائر في الوجود. قال تعالى: << فعرفتهم بسيماهم >>. إذا كان اللسان العربي قد أختاره الله تعالى لسان كتابه العزيز (القرآن) اختياراً إلى يوم الدين، و إذا كان القرآن الكريم حوى كل شيء في الشهادة والغيب، و إذا كان هذا حقاً لا مرأى فيه، فإنه يفيد في قراءتنا أن أصواته التي تتشكل منها مفرداته وتتركب بها جملة هي محتوية لا محالة على معاني في الوجود. فالراء هي سمة لمعنى الرحمة التي هي قيمة أساس في الحياة، بل قائمة على أساسها الكائنات في الوجود. وهي شعور فطري في الكائن يترجمه سلوك معين معروف ومألوف ذلك أنه بتبصر صوت الراء في الكلمات التالية: - الرحمة - الرحيم - الرحمان - الرحم و الرسول والرفعة والرضى و الرؤية والري... نجدها حاملة لمعنى الرحمة في مفهومها الواسع و بأشكال و صور مختلفة غير منتهية.

إذ قد يفيد معنى الرحمة سلوك نابع يصدره الإنسان و الحيوان. وقد تقرأ معنى الرحمة من ذات الشيء و وجوده، وقد تستخرج دلالة الرحمة من الشيء وضده، وهكذا يسير المعنى على صور متباينة ومتعددة. و إذا كان اللغويون قد أجمعوا على أن صوت (الراء) يفيد دلال التكرير واسترسلوا في حركة نطقة بقولهم الراء: يتم نطقها بأن يترك اللسان مسترخياً في طريق الهواء الخارج من الرئتين، فيرفرف اللسان ويضرب طرفه في اللثة ضربات متكررة، وهذا معنى وصف الراء بأنه صوت تكراري، هذا بالإضافة إلى حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية عند نطق هذا الصوت (7) وذكر القدماء أن هذا الصوت يخرج من بين رأس اللسان مع ظهره مما يلي رأسه، و ما يحاذيهما من لثة الثنيتين العلويتين وفي كتاب الرعاية: الراء من مخرج النون غير أنها أدخل إلى ظهر اللسان قليلاً. والمراد من ظهر اللسان مما يلي رأسه، وهي صفحته التي تلي الحنك الأعلى (8). ويتكون هذا الصوت حين ينطلق الهواء من الرئتين حتى يصل إلى الحنجرة فيحرك الأوتار الصوتية ويؤثر فيها بالاهتزاز، ثم يغادر الحنجرة فيمر بالحلقة فاللسان أقصاه ووسطه حتى يصل إلى طرفه فيلتقي طرفه مع اللثة التقاء غير محكم، فيسمح للهواء بالمرور مع سماع لون من الحفيف وصفاتها (الراء) الجهر والتوسط والانفتاح والاستفال والإذلاق و الانحراف و التكرير(9). فإن القراءة السيميائية تنطلق منه لتتجاوزها إلى معنى أكبر و أرحب نحسب أنه لا يعارضه ولا ينفصل عنه هو معنى الرحمة التي وسعت كل شيء. وفي مفهوم الرحمة يدخل النافع ظاهراً و باطناً، كما قد يدخل الضار ظاهراً لا باطناً، إذ رب ضارة نافعة، فالموت ضار لكنه رحمة و المرض ضار لكنه رحمة و الرياح ضارة لكنها رحمة وهكذا. في سائر الكائنات وحوادث الوجود.

فالرحمة هي معنى يسري في الوجود يعيشه الإنسان ويتلمسه ويدور حوله ويتقلب فيه ولا يفارقه أبدا - << وفي أنفسكم أفلا تبصرون >> (10). فكان لابد لهذا المعنى الكبير أن تكون له سمة صوتية يعرف بها. وليس ذلك برأينا إلا في صوت (الراء).
في اللسان العربي وإذا تركنا صوت الراء ولأخذنا صوت الحاء نجد اللغويين في وصفة ونطقه يقولون:

الحاء: صوت مهمرس بناظر العين، مخرجها واحد قال الخليل: (لولا بحة في الحاء لا شبهت العين) (11). فهي صامت حلقى، احتكاكي (رخو) مهموس (voiceless) مرفق. يقول ابن سينا: (والحاء مثلها، إلا أن فتح الذي لا اسم له أضيّق، والهواء ليس يحفز على الاستقامة حفزا، بل يميل إلى خارج حتى يفسر الرطوبة ويهزها إلى قدام، فتحدث من انزعاج أجزائها إلى قدام هيئة الحاء (12).

والحاء تخرج من المخرج الثاني من وسط الحلق، ويخرج عندما يمر الهواء من القصبة الهوائية حتى يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار، ويتسع مجرى الهواء إلى وسط الحلق، فيضيّق مجرى الهواء ليسمح للهواء بالمرور. محدثا نوعا من الحفيف، لذلك كان صوت الحاء رخوا في عرف القدماء احتكاكيا في عرف المحدثين، ولها خمس صفات الهمس و الرخاوة و الإستقال والانفتاح و الإصمات (13). هذا من جهة الوصفة العلمية لصوت الحاء. أما القراءة السيميائية فترى أن الحاء: سمة صوتية لمعنى الحياة بمفهومها الواسع قد تلحضا جلية في هذه الكلمات: الحياة- الحلال- الحرام- الحكمة- الحكم- الحلم- الحلة - الحير - الحنان- الحمد- الحمل- الحزم- الحرم الحمى - الحب- الحبر- الحفل - الحلق- الحفر- حقل - حديقة... الخ و الحياة مفهوم واسع ومركب من معاني جزئية تصب في إناء كلي كبير. فكل معنى من هذه المعاني يشع بشعاع من معنى الحياة وهكذا. فهي توحى إليها تارة بالتصريح وتارة أخرى بالتلميح. وجودها في أقصى الحلق يعطي دلالة بداية الحياة التي قبلها موت. (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) (14).

وصوت الحاء محموس وميسوط ومفتوح أسهل ومنساب سهولة الحياة وانسيابها في الوجود حين تتأمل . ويفيد هذا المعنى أن الحياة تخرج من الحلال إذا تحلى به، وتبرز من الحرام إذا تخلى عنه. إذ سمي الحلال للإتيان، وسمى الحرام للامتناع، وهكذا.

فالحاء تفيد الحياة بمفهومها الواسع وما يؤدي إليها. وهي أقرب (صوت) إلى عملية التنفس الموقوفة عليها الحياة. ولك أن تتأمل معاني الحياة بمفهومها الواسع في التقلبات التالية:

حرم - مرح - حمر - رمح- رحم، وجزئيات تخدم المعنى العام لمفهوم للحياة.
ولنا بعد هذا أن نلاحظ معاني سيميائية وضعت على حيوانات و قد قرأها البلاغيون معاني بلاغية كالشجاعة للأسد والمكر والخداع للذئب والحماقة للحمار والبراءة للخراف والتخويف للحية الخ وهي برأينا معاني سيميائية وقراءتنا لها أن الإنسان في حقيقته جامع لها وهي موجودة فيه غير أن الراجحة وصفت .

وأضيف إلى هذا أن موقع صدارة الصوت في الكلمة المفردة في اللسان العربي يرجح دائما المعنى ويشير إلى السمة، فإذا قلت: محا - كانت هذه دلالة على الموت.
حمى - كانت هذه دلالة على الحياة.

إذا كان العلامة ابن جني قد ضبط معيار القوة في الصوت لاستنباط الدلالة الكلية له له ودلالة المفردة، كما فعل ذلك في مثال: قضم - وخضم - وأزّ وهزّ فكانت الفارق حيث قال: << ... فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى المعنيين وأضعفهما لأضعفهما... >> (15)

ويقول أيضا في سياق هذا المعنى: فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فبات عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. و ذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها ، فيعد لونها يحتذوها عليها، وذلك أكثر مما تقدره وأضعاف مانستشعره. ومن ذلك قولهم: خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقتاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة

شعيرها ونحو ذلك. وفي الخير (قد يدرك الخضم بالقضم)، أي قد يدرك الرخاء بالشدة، واللين بالشطف. وعليه قول أبي الدرداء (يخضمون ونقضم والموعد الله). فاختاروا الخاء للربط، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث (16). فإن السيميائية الصوتية تعتمد عين الصوت في الموقع الأول. إذ ذاك الذي برأينا يجلى دلالاته الخفية. كما تتجلى السمة للناظر ظاهرة في الشيء قال الله تعالى:

(سيماهم في وجوههم) (17). وقال (تعرفهم بسيماهم) (18). فمن خصائصها الظهور الاختفاء، أي في السيميائية الظاهر يجلى الخفي. وفي كلام ابن جنبي الآتي بعض من هذا المعنى إذ يقول: ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيهه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهاي أول الحدث، وتأخير ما يضاهاي آخره، وتوسط ما يضاهاي هي أوسطه سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب، وذلك قولهم (بحث) فالباء لفظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض، والحاء، والحاء لصحلتها تشبه مخالبا الأسد وبرائن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث والبث للتراب. وهذا أمر تراها محسوسا محصلا، فأى شبهة تبقى بعده أم أي شك يعرض على مثله (19).

الخاتمة:

وبعد فهذه رؤية تتطلع إلى الكشف عن الدلالة السيميائية لصوتي (الراء) و (الحاء) نموذجين في اللسان العربي منطلقة في القراءة من عبارة لكل شئ في الوجود معنى ودلالة وسمة وما اللسان إلا عالم منطوق لعالم مشهود. وإذا كان حد اللسان أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، فذلك يفيد أن للصوت في العربية معنى ودلالة وسمة. وليس أمرا غريبا على ذي نظر أن يقرر الإجتهد أن الراء هي سمة صوتية للرحمة في مفهومها الواسع وبأشكالها التي لا تحصى، وأن الحاء هي سمة صوتية للحياة في معناها الكبير الذي وسع كل شئ وبصور لا تنتهي

وللبحث صلة.

- 1 - النحل 103 .
- 2 - اللسان العرب وقضايا العصر – أ.د. عمار ساسي - ص 03 دار المعارف بوفاريك – الجزائر 2001.
- 3 - محمد 30 .
- 4 - الفتح 29
- 5 - البقرة 273
- 6 - النمل 60
- 7 - المدخل إلى علم اللغة – رمضان عبد التواب - ص 48 / ط 02 1985م/1405 هـ مكتبة الخارجي.
- 8 - نهاية القول المفيد – محمد مكي نصر – ط 01 . 1349 هـ مصطفى الحلبي – القاهرة –
- 9 - نهاية القول المفيد – محمد مكي نصر - ص 81 .
- 10 - الذريات 21 .
- 11 - العين- الخليل – ج 01. ص 57 .
- 12 - أسباب حدوث الحروف – ابن سينا – ص 16 .
- 13 - نهاية القول المفيد – محمد مكي نصر – ص 69 .
- 14 - الإنسان 01 .
- 15 - الخصائص ابن جني – ج 02 - ص 160 .
- 16 - الخصائص ابن جني – ج 02 - ص 157 – 158 .
- 17 - الفتح 29 . / 18 – البقرة 273 .
- 19 - لخصائص ابن جني- ج 02 – ح ص 162 – 163. تحقيق محمد علي النجار – دمشق -

مصادر ومراجع الدراسة:

- القرآن الكريم – رواية ورش عن نافع – وزارة الشؤون الدينية – الجزائر – 1983
- العين – الخليل ابن أحمد الفراهيدي – منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية- 1982
- .الخصائص – أبو الفتح بن جني- تحقيق محمد علي النجار – دمشق – أسباب حدوث الحروف – ابن سينا- ط 1 – 1983 .
- نهاية القول المفيد – محمد مكي نصر – مصطفى الحلبي – القاهرة – 1349 هـ .
- المدخل إلى علم اللغة – رمضان عبد التواب – مكتبة الخارجي ط 2 – 1985 .
- اللسان العربي وقضايا العصر.د/عمار ساسي – ص- دار المعارف ط 1 الجزائر – 2001.